تمهيـــد

بحث فى العظمة

الرجال أنواع :

رجال أفكار، ورجال أعمال، ورجال أقوال

قل أن يجتمع الفكر مع العمل، أما اجتماع القول بالفعل بـالفكر، فكـاد يكون ضربًا من المستحيل. ولكنه مستحيل، يقع أحيانًا، ليعرف الإنســان، أن أسرار الحياة لا تنفد، وأن معجزاتها لا تحصى.

لكن لماذا لا يجتمع فى رجل: الفكر والعمل؟

ربما لأن رجل الفكر، يسره أن يعلو على الواقع، ويصوغه علـى هـواه، ويطـوره ويحـوره، ليضيـف إليـه - ويحـذف منـه، ثـم يقننـه فـى صيـغ، ويلخصه فى مبادئ.

أما رجل العمل فيحترم الواقع، ويلتزمـه، وإن كـان يعتصـره اعتصـارًا، فيستخرج من القرش أقصى ما يعطى، ومن الإنسان أعظـم مـا يمنـح، ومـن المادة أكبر ما تحوى ومن الزمان أغنـى مـا يجـود بـه، ومـن المكـان أفضـل ما ينطوى عليه.

أمـا رجـل القـول، فيبلـغ مـن وجـوده أقصـى الغايـة، فـى كـلام يلـهم السامع، ويلهب الخاطر، ويسعد الأذن، ويخطف البصـر، ويدفـع الجمـوع إلى الاستماتة، فيشبه البوق فى الإهابة، والرعد فـى الإخافـة، والـبرق فـى الإضاءة.

فالى أى هذه الطوائف، ينتمى، محمد طلعت حرب؟

ليس الأمر سهلاً كما قد نتصور.

فهو حالم، كما يحلم الشـعراء، وكـاتب يعشـق لفظـه ويتذوقـه، وربمـا يتلمظ به، ثم هو يعرف كيف يرصفه بعضه إلى جوار بعض فى سياق جميل

ونظم بديع ولكنه رجل عمل بل رجل، لا يحسن الجمع والطرح، فحسب، بل إنه كان يدعو أمته إلى أن تقيم حياتها على أساس حسابى فقد كان شعاره، من حسب كسب».

ولكن رجال الأعمال، ليسوا طرازًا واحدًا.

فمنهم مؤسسو الأمم، ومنهم مؤسسو الدول، ثم مؤسسو مشروعات، وأخيرًا منفذو أعمال كبيرة ومنفذو أعمال صغيرة.

أما مؤسسو الأمم، ففى الأغلب الأعم ثوار، ومؤسسو الدول عادة ساسة. الأولون روحيون أقرب إلى أهل الفكر، وإن كانوا رجال عمل، يريدون أن يخلقوا فى الواقع شيئًا، وأن يجمعوا شتات الناس، ويحتملوا أذاهم، ويصبروا على ضعيفهم، وسخيفهم معًا، وهم فى هذا يتفقون مع مؤسسى الدول، إلا أنهم لا يلبثون حتى يفترقوا عنهم فمؤسس الأمم رجل أخلاق ومبادئ، ومؤسس الدول رجل دهاء وحذق، نهاز للفرص، يجب عليه أن يدارى، ويداور.

وأستطيع أن أقول، فى هدوء وبلا مبالغة، أن طلعت حرب، من مؤسسى الدول.

وأرجو ألا تهولك هذه العبارة. فقد تظن أن كل مؤسسى الدول، قد أقاموا بالفعل، إذ أن طائفة مؤسسى الدول هى طائفة ذات خصائص نفسية وعقلية، وليس حتما أن تتاح لكل فرد من هذه الطائفة فرصة العمل. وقد يكون مؤسس الدولة، عمدة قرية، وقد يموت دون أن يخرج من قريته، ولكنه يبقى مع ذلك من أفراد هذه الطائفة، بخصائص عقله، وصفات نفسه، ومزايا إرادته.

ولو كانت ظروف طلعت حرب غير الظروف، لكان على رأس دولة، أشبه الناس بمحمد على، وقد عبرت صفاته وخصائصه ومواهبه عن

نفسها، فيما قاله، وفعله، فقد كان فى كل ذلك، يبنى فى الخيال، ثم فى الحقيقة، دولة يتصورها ويرسم لبنائها الخطط، وقد اتضحت معالم هذه الدولة شيئًا فشيئًا.

لقد ذهب اسم طلعت حرب فى التاريخ، مقرونًا بأكبر آثاره، وهو (بنك مصر)، الذى انشأه فكان أول بنك مصرى يقوم على أكتاف الشعب نفسه، بلا معونة من الحكومة، ولا إشراف، ولا توجيه، بل ولا حتى مجرد العطف على الفكرة، وقد بقى (بنك مصر) فريدًا فى تاريخ النشاط الاقتصادى والاجتماعى بهذه الصفات، فلم يشبه نشاط آخر فى مثل نجاحه وثباته، واتساعه.

ولكن النشاط الذهنى والعملى لطلعت حرب قبل سنة ١٩٢٠، سنة إنشاء البنك، دالة على أنه رجل عام، ورجل سياسة، ورجل دولة. فأول موضوع استحثه على الكتابة، هو حرية المرأة، ردا على كتاب قاسم أمين سنة ١٨٩٩، ثم ثنى بكتابه عن دول العرب والإسلام سنة ١٩٠٥، ثم ساهم فى الحملة ضد مد امتياز قناة السويس سنة ١٩١٠، وهى الحملة التى قادها بكفاية عظيمة، محمد فريد، زعيم الحزب الوطنى، حينما شرعت وزارة بطرس غالى بمعونة وتأييد وزير الحقانية سعد زغلول، فى مد امتياز شركة قناة السويس لأربعين سنة، مقابل أربعة ملايين جنيه، تدفع لمصر على أقساط متقاربة. وهو موضوع فى الصميم من السياسة، وإن كان له جانبه الاقتصادى والمالى، فإذا كانت سنة ١٩١٦ أسندت إلى طلعت حرب ومالى يهودى مصرى، هو يوسف قطاوى باشا مهمة ظاهرها اقتصادى وباطنها سياسى بحت، فقد طلب إليهما أن يدرسا الأساليب والوسائل التى تذرعت بها ألمانيا لترويج صادراتها فى العالم، وما ضمن لهذه الغاية النجاح والتوفيق اللذين استوقفنا نظر الاقتصاديين والماليين المصريين فى كل مكان. وواضح أن كاتب هذا التقرير، هو طلعت حرب، فان فيه خصائص

طلعت حرب القلمية التى نعرفها بأيسر الجهد فيما كتبه بعد ذلك. ولكن أيا كان نصيبه فى كتابة هذا التقرير، فانه وزميله، لم يقنعا من المهمة الموكولة إليهما بجانبها الاقتصادى، فقد أحاطا بنشاط دولة ألمانيا إحاطة المتعمق، وبدأ فهمهما لوسائل الدول فى تحقيق أهدافها القريبة والبعيدة ومناهجها فى التعبئة وجمع الأخبار، وكشف الأسرار، والاستعانة بالمواطنين المقيمين فى الخارج، ورجال القنصليات، والسائحين من أبنائها. وبالجملة، يمكنك القول، أنه لو لم تكن لكاتب التقرير عقلية السياسى المشغوف بنشاط الدول ومساعيها الظاهرة والباطنة لما نجح فى كتابته بالقدر الذى حققه فعلا.

ولو لم تكن عقلية طلعت حرب سياسية، ولو لم يكن مزاجه مزاج رجل دولة، لما هدته فطرته إلى أن ثورة سنة ١٩١٩ قد هيأت لفكرته العزيزة إلى قلبه، الحبيبة إلى نفسه فرصة إن أفلتت منه فلن تعود، ولولا هذه الصفات السياسية ذاتها لما استطاع أن يجمع المصريين جميعًا حوله، فى وقت كانت فيه الخصومات الحزبية، قد بلغت أقصى شدتها فى أعقاب إجهاض ثورة سنة ١٩١٩. وقد بقيت يده على دفة زورق البنك، يديره، ويوجهه فى مآزق السياسة الحزبية، وشطآنها وخلجانها، دون أن يصطدم بصخرة من صخورها يتحطم عليها وتتناثر أجزاؤه فى الهواء. وليس يكفى أن يكون للإنسان العام فى وسط الحرب الأهلية التى شبت نارها بين المصريين فى سنة ١٩٢٠ وما بعدها، ليس يكفى أن يلتزم الإنسان العام الصمت وأن ينأى بنفسه عن المشاركة فى الصراع الحزبى لينجو، ففى هذه الفترات من الخصومات المشبوبة، والعداوات الجامحة، والشهوات المنطلقة لا يقنع زعماء الفئات المتقاتلة بمجرد الحياد، اذ يطلبون من الناس جميعًا، أن يقفوا معهم، معلنين شعار: كل من ليس معنا، فهو ضدنا. وفعلاً قد بقيت العلاقة بين حزب الوفد، وزعيمه سعد زغلول من جهة،

وبين بنك مصر، وطلعت حرب من جهة أخرى، فاترة زمنًا طويلاً، حتى أن أموال الوفد لم تكن مودعة فى بنك مصر، فقد كان يحس أن طلعت حرب، أقرب إلى خصومه منه إليه مع أن طلعت حرب وسعد، كانا من زعماء حزب الأمة، ولكن لم يجرؤ سعد على محاربة بنك مصر جهرة لما للبنك من مقام.

ولكن طلعت حرب صمد لهذه التجربة، ولم يصدر منه قط ما يغضب حزبا، ولا هيئة، ولا طائفة، ولا عصبية ما من العصبيات ذات النفوذ وقد ضم مجلس إدارة البنك كبار الرجال من المسلمين والمسيحيين واليهود، وحرص على تمثيل العائلات ذات الماضى التجارى كما حرص على أن يكون على رأس المجلس رجل على صلة بالسراى الملكية، وعلى أن يكون رجلا بلا لون ولا نشاط، ولا موهبة، ليكون حلية حقيقية.

وقد كان ممكنا أن يلتزم طلعت حرب الحرص فى كل كلامه، وأفعاله، وأن يتئد ويتريث فى كل خطوة يخطوها، ثم يصدر من أحد أعوانه، لولا أنه كان يعرف كيف يختار معاونيه، وكيف يتبين فيهم حسن استعدادهم لتنفيذ سياسته على الوجه الذى يريده ولا يتجاوزونها أبدًا.

ولقد عبر طلعت حرب عن مكانة بنك مصر من جهة، وعن دوره، من جهة أخرى، فى خلق الدولة التى يحلم بها طلعت حرب، والتى تزيد كثيرًا عن مصرف وطنى، مهما ضخم هذا المصرف، ومهما زاد رأسماله، أو زادت أعماله وأعباؤه وودائع المواطنين فيه.

أما عن مكانة «بنك مصر»، فقد تحدث عنها فى خطابه يوم ٧ مايو سنة ١٩٣٥، فى الاحتفال بانقضاء ١٥ عامًا على ميلاد البنك فقال:

إذا أردنا تقدير رأس مال البنك على حقيقته، يجب إلا نغفل شهرة البنك فى مصر، وفى غيرها. ومقدار تأثيره فى المحيط المصرى المالى. وقيمة كلمته المسموعة فى كل مكان. وعظم الثقة التى منحتها له الأمة، حكومة

وشعبًا، وكذلك رضا الجميع عن أعماله وجهوده المختلفة، فكان كل أولئك له قيمته، وله تأثيره، وله وزنه، عند ضبط رأس مال البنك على وجهه الصحيح. ثم زاد هذا المعنى وضوحًا فقال:

«وبنك مصر نفسه أصبح والحمد لله، رسالة يقرأ فيها الناس معنى الصدق والحق والثقة، حتى أنه لا تؤلف لجنة أو هيئة أو مجلس فى الحكومة وغيرها إلا ودعى إليها أحد رجال مجلس إدارة البنك، وحتى أنه لا يفكر أجنبى أو مصرى فى مشروع مالى أو اقتصادى بمصر إلا خطر له ضرورة الإحاطة برأى بنك مصر فيه، ثم لا يلبث أن يبادر توا إلى عرضه عليه».

ولكن إذا أردت أن تسمع كلامه الذى تفوح منه رائحة رجل الدول، لا رجل البنك، فاسمع مثلاً:

«كان لنا فى هذه الفترة القصيرة - فترة الخمسة عشر عاما - أن ركز البنك فى السهل، والجبل، وفى الشرق والغرب، وعلى الماء، ومتن الهواء، علم البلاد.. يخفق تحت الشمس باسم بنك مصر، وشركات مصر. بل باسم (مصر) كلها أو بعضها، بعد أن طال احتجاجه بين الظلام عهدا طويلا..» ثم اسمع هذا الكلام أيضا:

«إن أمتنا التى عملت قديما للخلود، وكتب لها البقاء فى سجل الأبد، وتاريخ الإنسانية طفل وليد.. أمتنا هذه، ليس كثيرًا عليها أن تحفظ على مر الدهور، وتعاقب العصور، هذا البنك، الذى ولد ودرج وشب، فى حجر نهضتها المباركة لتحتفل بأعياده المختلفة، عيدا بعد عيد، وليكون أبد الحياة مثابة للناس وأمنا، يوالونه بالعطف والرعاية، والإقبال والتأييد..».

ويكشف عن سر نجاح بنك مصر، فى كلمة تقطر سياسة قال:

«ونحن هنا لا نذيع سرًّا، إذا قلنا لكم إن سبب نجاح بنك مصر، هو أولاً فى الابتعاد عن زحام السياسة والحزبية.. فهو قد فتح أبوابه لخدمة جميع المصريين، عامة وخاصة، على السواء. وأصبح موضع احترام وثقة كل حكومة مضرية، تتربع فى دست الحكم، وصديقا لكل الأحزاب السياسية المختلفة المبادئ والمشارب..

«وابتعاد السياسة عن البنك، ليس ناتجا عن عدم اكتراث بمصالح البلد العليا، فان المصرى الذى لا يكترث بمصالح وطنه لم يولد بعد ولكنه اتباع للحكمة المأثورة. لكل عمل رجال.

«فللسياسة رجال، وللمال رجال. ومن يخلط بين عمل وعمل، اختلط عليه الأمر، والتوى عليه القصد، وأفلت منه سر النجاح».